مواجهة الملأ القولية للأنبياء
في القرآن الكريم

دكتور

شافي سلطان محمد العجمي

الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة دولة الكويت

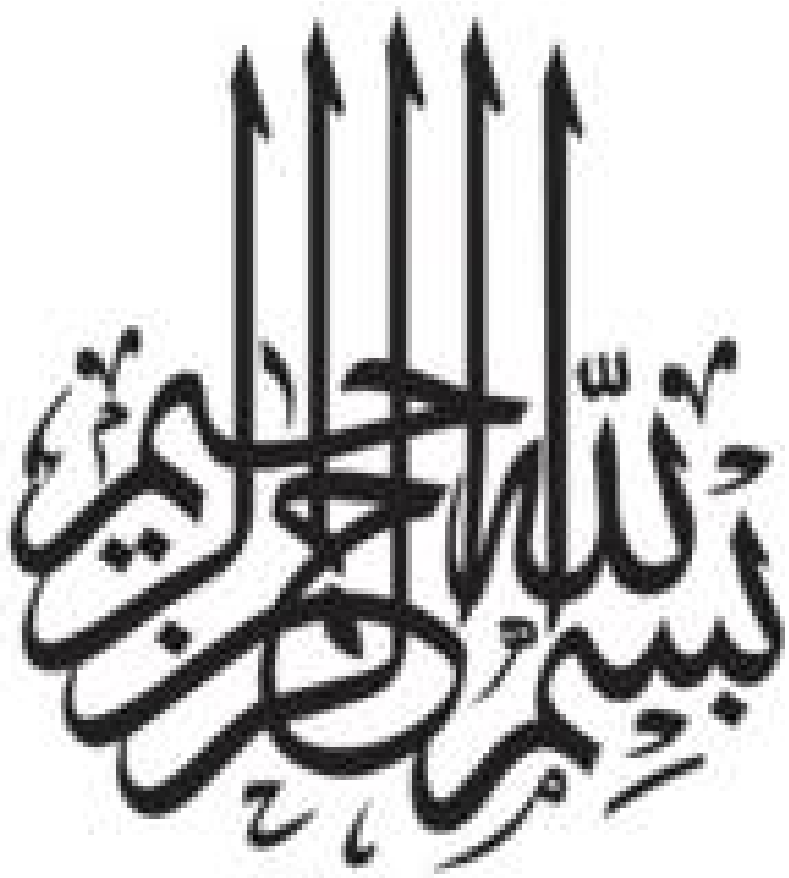

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فإن الناظر في قصص الأنبياء في القرآن يجد أنها قد تبوأت ثلثه، وذلك لضرورتها في الدعوة، من جهة بيان تاريخ الدعوة ، وتوافقها ، وجزاء أهلها ، وعاقبة من أعرض عنها .

وكان الذي تولى كبر العداوة للأنبياء هم الملأ ، من الرؤساء والوجهاء وأصحاب الأموال ، ومن نظر إلى المواجهة بين الفريقين وجد أنها كانت قولية وفعلية ، وقد تحدث القرآن عن المواجهة القولية أكثر بحديث تفصيلي بديع .

ومع كثرة المتحدثين عن قصص الأنبياء إلا أن الحديث عن مواجهة الملأ القولية للأنبياء وأنواعها وعرض القرآن لها لم تحظ بالعناية والتفصيل ، وتبيان منهج القرآن في ذلك .

من أجل ذلك فقد عقدت العزم لاستخلاص الحديث عن مواجهة الملأ القولية للأنبياء من القرآن الكريم ، منتهجا المسلك الاستقرائي ، وقد أغفلت التراجم لشهرة أصحابها وضيق مساحة البحث المحددة .

وسيكون البحث في مقدمة وقد مضت وتمهيد يبين فيه الصيغ الواردة في القرآن في الحديث عن الملأ وتعريف الملأ وأسباب إعراضهم عن اتباع الأنبياء ، وثمانية مطالب : المطلب الأول الجدال ، والمطلب الثاني :

سؤال المعجزات ، والمطلب الثالث التحدي ، والمطلب الرابع : السخرية والاستهزاء ، والمطلب الخامس الطعن والتشكيك ، والمطلب السادس : الدعاء ، والمطلب السابع : التهديد ، والمطلب الثامن : التحريش ، وخاتمة يبين فيها أهم النتائج والتوصيات .

التمهيد :

أولا : الصيغ الواردة في القرآن عن الملأ :

١- الصيغ الصريحة : جاء بصيغة (ملئه) في ستة مواضع كقوله تعالى : " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)" .

وجاء بصيغة (الملأ) في قوله تعالى : " قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) " ، وقد وردت في عشرين موضعا ، وكلها بمعنى الوجهاء والسادة .

٢- الصيغ غير الصريحة : جاء الحديث عن الملأ في القرآن بتسميتهم أكابر ، ومترفين ، ومجرمين ، وتارة يأتي بلفظ الكفار ، والظالمين ، والفاسقين ، كقوله تعالى : " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) " ، وقوله سبحانه : " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) " .

ثانيا : تعريف الملأ :

لغة : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مشتق من الامتلاء .

اصطلاحا : تعددت ألفاظ أهل العلم في معنى الملأ ، وكان ذلك على النحو الآتي :

---

١ سورة هود : ٩٦،٩٧ .

٢ سورة الأنعام : ١٢٣ .

٣ سورة الإسراء : ١٦ .

٤ مختار الصحاح للرازي (٢٩٧/١) ، وتهذيب اللغة للأزهري (٢٨٩/١٥) ومقاييس اللغة لابن فارس (٣٤٦/٥)

الفريق الأول : يذهب إلى أن الملأ هم وجوه الناس ورؤساؤهم والسادة .

الفريق الثاني : يذهب إلى أنهم الوزراء وأهل الرأي والمشورة .

الفريق الثالث : يذهب إلى أنهم جماعة من الناس .

وليس بين هذه الأقوال فرق ، لأن القاسم المشترك بينها هو علو مكانة الملأ ، وسيادتهم ، ورجوع الناس إليهم ، فتارة يكونون رؤساء القوم ، وتارة يكونون وزراء الدولة وأهل الرأي فيها ، ومن فسر الملأ بالجماعة من الناس أراد أن الملأ بعض الناس وليس كلهم .

والملأ هم المعارضون للرسل والأنبياء ، وما خرج نبي ولا رسول إلا ونجد الملأ هم الذين يتصدون لهم ويعارضونهم ويطعنون بهم ويقومون بتعذيب أتباعهم ، وكان حديث القرآن عنهم من أجل ذلك ، ولا يتحدث القرآن كثيرا عن ضعفاء الكفار ، لأنهم يتبعون الملأ المستكبرين المترفين .

وأقدم من فسر الملأ برؤوس الناس هو ابن عباس ، فقد قال في قوله تعالى : (قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري) : " فجمعت رءوس مملكتها فشاورتهم " . [٢]

ومثله التابعي أبو مالك فقد قال :أن الملأ هم الأشراف ، وهو قول زهير بن محمد . [٤]

وعبارات المفسرين واللغويين لا تخرج عن هذه المعاني :

---

١ سورة النمل : ٣٢ .

٢ تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٧٥/٩) .

٣ تفسير ابن أبي حاتم (٢٠٢٢/٦) .

٤ تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٧١/٩) .

قال الطبري عن الملأ : " وجوه الناس وأشرافهم ورؤسائهم " ، وفسر الملأ في موضع آخر بالجماعة من الرجال ، لا امرأة فيهم ، وتفسير الملأ بالجماعة من الرجال هو قول الفراء .

ويستدل الرازي على أن الملأ هم الرؤوس والأكابر فيقول : " وقال المفسرون : الملأ الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء ، والدليل عليه أن قوله من قومه يقتضي أن ذلك الملأ بعض قومه ، وذلك البعض لا بد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف ، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملؤون صدور المجالس ، وتمتلئ القلوب من هيبتهم ، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم ، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء ، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر " .

ويبين في موضع آخر أن الملأ هم الأشراف ويذكر أربعة أقوال في اشتقاقه ، فيقول:

" الملأ الأشراف وفي اشتقاقه وجوه :

الأول: أنه مأخوذ من قولهم مليء بكذا إذا كان مطيقا له وقد ملئوا بالأمر، والسبب في إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملئوا بترتيب المهمات وأحسنوا في تدبيرها .

الثاني: أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتمالؤون أي يتظاهرون عليه .

---

١ تفسير الطبري(٢٩١/٥) .

٢ تفسير الطبري(٤٩٩/١٢)

٣ معاني القرآن للفراء (٣٨٣/١) ، وقال : الملأ هم الرجال لا يكون فيهم امرأة ، وكذلك القوم والنفر والرهط .

٤ مفاتيح الغيب للرازي (٢٩٦/١٤) .

الثالث: وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة.

الرابع: وصفوا به لأنهم ملؤوا العقول الراجحة والآراء الصائبة " .

ولا يبتعد الزمخشري عن قول الطبري والرازي فيقول : " الملأ الأشراف والسادة. وقيل: الرجال ليس معهم نساء " ، وقال في موضع آخر مبينا اشتقاق الملأ : " الملأ الأشراف من قولهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقا له، وقد ملؤوا بالأمر، لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها ، أو لأنهم يتمالؤون أي يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة " . [٣]

ويزيد في موضع ثالث على معاني الملأ بأنهم العلماء والحكماء فيقول : " يا أيها الملأ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء " .

ويقرر في موضع رابع أن الملأ هم أهل المشورة ، فيقول : " وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا: كل واحد على عشرة آلاف " .

ويجمل ابن عطية ما سبق ، فيقول : " الملأ : قيل هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين ، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمرٍ تَم " . [٦]

---

١ مفاتيح الغيب للرازي (٣٣٧/١٧) .
٢ الكشاف للزمخشري (١١٣/٢) ، (٧٣/٤) .
٣ الكشاف للزمخشري (٣٨٨/٢) .
٤ الكشاف للزمخشري (٤٧٤/٢) .
٥ الكشاف للزمخشري (٣٦٤/٣) .
٦ المحرر الوجيز (٤١٥/٢) .

وقال في موضع آخر : " والْمَلَأُ الجمع والأكثر من القبيلة والمدينة ونحوه، ويسمى الأشراف ملأ إذ هم عمدة الملأ والسانّون مسدّه في الآراء والأمور، وكل جماعة كبيرة ملأ " ، وقال في موضع ثالث : و«الملأ» : الجمع من الرجال .

ويبين ملحظا جميلا في تخصيص الملأ بالذكر ، فيقول : " وخص الملأ بالذكر لأنهم يسدون مسد جميع الناس " .

ويزيد ابن جزي معنى جديدا في الملأ ، وهو جلساء الملك فيقول : " يا أَيُّهَا الْمَلَأُ خطاب لجلسائه وأهل دولته " .

ويذكر الزجاج أن الملأ هم أشراف القوم ووجوههْم ورؤساؤهم ، وإنما سمُّوا بذلك لأنهم ملءٌ بما يحتاج إليه منهم " .

وقال عن ملأ الملك في تأويل الرؤيا : " الملأ الذين يرجع إليهم في الأمور، ويقتدي بآرائهم " .

ويختم ابن كثير كلمة المفسرين في الملأ ، فيقول في قوله :(قال الملأ من قومه) أي: " الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم " ، وقال في ملأ

---

١ المحرر الوجيز (١٦٣/٣) .
٢ المحرر الوجيز (٢٠٤/٣) .
٣ المحرر الوجيز (٥٨/٥)
٤ تفسير ابن جزي (٣٨٨/١) .
٥ معاني القرآن للزجاج (٣٢٦/١)
٦ معاني القرآن للزجاج (١١٢/٣) .
٧ تفسير ابن كثير (٤٣٢/٣) .

الملك في قصة يوسف : " فجمع الكهنة والحزاة وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك " .

ولم يختلف المفسرون المتأخرون عن المتقدمين في تفسير الملأ ، ففي تفسير المنار لرشيد رضا يقول : " وتولاه الملأ منهم ؛ أي : كبراء رجالهم" ، وقال في موضع آخر : " أشراف قومه وأركان الدولة منهم[٢]" .

وقال المراغي في ملأ فرعون : " قال الأشراف من قوم فرعون وهم أهل مشورته ورؤساء دولته " ،ويؤكد على قول ابن عطية في اجتماع الملأ على رأي واحد" .

ويبين في موضع ثالث وجه تخصيص الملأ بالذكر ، فيقول : " خص الملأ بالذكر وقد أرسل إلى قومه جميعا ، لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة في دولته ، ويعهد إليهم بتنفيذ ما يقرره من الأمور، فغيرهم يكون تبعا لهم في كل ما يأتون ويذرون" .

وقال في موضع رابع عن ملأ الملك في تأويل رؤياه : " فجمع الكهنة والعلماء" .

وقال أبو زهرة في تفسير ملأ بني إسرائيل : " والملأ هم الكبراء وأشراف القوم، كأنهم ممتلئون شرفًا ، وقال الزجاج : سموا بذلك ؛ لأنهم ممتلئون

---

١ تفسير ابن كثير (٣٩٢/٤) .
٢ تفسير المنار (٣/٩) .
٣ تفسير المنار (٩ /٥٣) ، (١٢٥/١٢) .
٤ تفسير المراغي(٢٥/٩) .
٥ تفسير المراغي (١٤٠/١١) .
٦ تفسير المراغي (٧٩/١٢) .
٧ تفسير المراغي (١٥٤/١٢) .

مما يحتاج إليه منهم ، ويطلق الملأ ويراد به الجماعة ، من قبيل إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل ، لأن ذلك الجزء له مزيد فضل وشرف على بقية الأجزاء ، وقد فسر الراغب في مفرداته الملأ بأنه " الجماعة يجتمعون على رأى فيملئون العيون رواء ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا .

وما المراد بالملأ هنا ؛ أهم كبراء بني إسرائيل ، أم القوم كلهم ؛ أكثر المفسرين على أن المراد بنو إسرائيل وعلى هذا تكون " من " بيانية ؛ فالمعنى أن بني إسرائيل جميعا اجتمعوا ، وقالوا في عصر من العصور لنبي لهم ابعث لنا ملكا .

---

١ وهذا غريب أن يصدر من الشيخ لأن جميع المفسرين من المتقدمين والمتأخرين يوافقون الشيخ على أن الملأ هنا هم الوجهاء والسادة ، ولم يختر أحد منهم أن الملأ هنا هم جميع بني إسرائيل ، ولم يقل أحد أن (من) بيانية ، بل ظاهر كلامهم أنها تبعيضية ، وهذا قول الرازي والطبري والثعلبي والسمعاني والبغوي وابن عطية والعز بن عبدالسلام والنسفي وأبو حيان ، وصرحوا أن الملأ هنا هم الرؤساء والأشراف ، انظر مفاتيح الغيب (٥٠١/٦) ، وتفسير الطبري(٢٩١/٥) ، وتفسير الثعلبي (٢٠٨/٢) ، وتفسير السمعاني (٢٤٨/١) ، وتفسير البغوي (٣٣٣/١) ، وتفسير ابن عطية (٣٣٠/١) ، وتفسير العز بن عبدالسلام (٢٣١/١) ، وتفسير النسفي (٢٠٣/١) والبحر المحيط لأبي حيان (٥٨٩/٢) ، واختار الواحدي أن الملأ الجماعة في تفسيره الوجيز ((١٧٨/١) ، وقال البيضاوي في تفسيره أنهم الجماعة يجتمعون للتشاور(١٤٩/١) .

٢ لم أجد من وافق الشيخ على نقل هذا الرأي ، بل قد صرح أهل التفسير أن (من) هنا للتبعيض ، انظر معاني القرآن للزجاج (٣٢٥/١) ، ومعاني القرآن للخازن (١٧٨/١) ، وروح المعاني للألوسي (٥٥٦/١) .

وإني أرى أن كلمة الملأ هنا المراد بها الكبراء وأهل الرأي منهم ، فإن الدهماء دائمًا في شغل شاغل حتى ينبههم كبراؤهم ، وذوو الرأي والشأن فيهم ، وخصوصًا إذا كان الدهماء قد غلبت عليهم الشقوة والذلة ، وكذلك يكونون دائمًا في حال الانهزام وتغلب الأجنبي على الأمة " .

وقال ابن عاشور في تفسيره : " ويطلق الملأ على أشراف القوم وقادتهم لأن شأنهم أن يكون رأيهم واحدا عن تشاور، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (من) الدالة على التبعيض أي أن قادة القوم هم الذين تصدوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطب جميعهم " .[٢]

ونخلص من هذا كله إلى أن الملأ هم الوجهاء والأشراف من الوزراء والقادة وغيرهم ، وهم جماعة من الرجال يسدون مسد الجماعة الكثيرة ، وعملهم الذين يقومون به أنهم يدلون برأيهم ، ليصدر الناس عن رأيهم ، وبذلك يكونون هم أهل الحل والعقد ، فإذا عقد الملأ شيئا لم يحله أحد ، وإذا حلوا شيئا لم يعقده أحد ، وتارة يكونون جلساء الملك وخاصته ، وتارة يكونون هم أهل الأمر في البلد .

ثالثا : أسباب إعراض الملأ عن دعوة الأنبياء :

السبب الأول : حفظ المكانة ، وتثبيت الرئاسة ، لأن دعوة الأنبياء تقتضي اتباعهم ، وقوة الملأ تكمن في متابعة الضعفاء لهم ، فإذا جاء من يتبعه الناس سقطت رئاستهم ، وعلى ذلك فالإعراض سببه المنافسة والغيرة والحسد ، وخوف ذهاب المنزلة .

---

١ زهرة التفاسير لأبي زهرة (٨٨٣/٢).

٢ التحرير والتنوير (١٩٠/٨) .

قال رشيد رضا : " كان الملأ المستكبرون من الأقوام، المغرورون بالمال والجاه، هم أول الذين يجحدون آيات ربهم ويكذبون رسله، لأنهم يرون في اتباعهم لهم غضا من عظمتهم، وخفضا من علو رياستهم " .

السبب الثاني : متابعتهم لغيرهم ، وطاعتهم لغيرهم بعد أن كان الناس يطيعونهم ، وتحولهم من رؤساء إلى مرؤوسين ، وهذا أثقل على نفوسهم من تحول الغني إلى فقير ، لأن طاعة الناس لهم ألذ في قلوبهم من كل شيء ، وانتقالهم لطاعة غيرهم أشق عليهم من سلخ الجلود ، وهذا الشعور يغلي في قلوبهم ولو بقوا على كفرهم ، لأنهم يرون سيدا مطاعا يكثر أتباعه ، وهو السبب الثالث .

السبب الثالث : مشاهدتهم لكثرة أتباع الأنبياء ، وطاعة الناس لهم ، وتصديقهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، وهذا أمر لم يشاهدوا نظيره ، لأنهم يعرفون أن بعض أتباعهم يطيعهم في العلن ويعصيهم في السر ، أما حال أتباع الأنبياء فهو يبعث الحسد في قلوبهم ، ويحرق نار الغيرة في نفوسهم .

السبب الرابع : مخالطتهم للدهماء والفقراء ، ومساواتهم بعبيدهم ، وحديث الناس عنهم إذا رأوهم مع الفقراء الضعفاء ، ولا شك أن أغلى ما يمتلكه الملأ المكانة الاجتماعية ، فإذا ذهبت لم يبق لهم مكان ، ولما كان أحط شيء في عين الملأ الفقراء والضعفاء ، كانت المساواة معهم تنغص

---

١ تفسير المنار (١٢/١٥٨) .

٢ تفسير المراغي (٨ / ٢٠٠) .

٣ تفسير المنار (١٢/١٨٦)

٤ تفسير المنار (١٢/١٥٨) .

عليهم كل شيء ، ولعلهم يجدون في أنفسهم أن مخالطة البهائم أخف على قلوبهم من مخالطة العبيد .

السبب الخامس : لما كان يصعب على الملأ الامتناع عن الإسراف في الشهوات ، والوقوف عند حدود الاعتدال ، وكانت أموالهم ومكانتهم قد تحققت بالباطل ، من الرشوة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، صار ذلك مانعا لهم من اتباع الأنبياء .

المطلب الأول : الجدال :

معنى الجدل : قال الراغب : الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه ، وأصله من جدلت الحبل [٢] .

وقال ابن فارس : الجيم والدال واللام أصل واحد ، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه ، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام [٣] .

والجدال فيه الممدوح والمذموم ، فما كان للوقوف على الحق فهو الممدوح وإلا فمذموم [٤] .

وعلى ذلك فالجدال ثلاثة أنواع : الأول الجدال للوقوف على الحق ، والثاني الجدال انتصارا للنفس ، والثالث الجدال لنصرة الباطل أو رد الحق ، وكان جدال الملأ من النوع الثاني والثالث ، فقد كانوا يجادلون الأنبياء لرد الحق الذي معهم ، ونصرة الباطل الذي يؤمنون به ، وكل ذلك انتصارا لباطلهم وأهوائهم .

---

١ تفسير المراغي (٨ / ٢٠٠) .

٢ المفردات للراغب الأصفهاني (١٨٩/١)

٣ معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٣٣/١) .

٤ تاج العروس للزبيدي (١٩٤/٢٨)

وقد ورد لفظ الجدل واشتقاقاته في القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة ، منها الفعل (جادل) بأزمنته الثلاثة ، والمصدر (الجدال) ، و(الجدل) ، ووردت آيتان في المحاجة وآيتان في المراء .

وطبيعة الإنسان طبيعة جدلية ، كما قال تعالى : " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً " [١] ، ولذلك سيجادل عن نفسه يوم القيامة ، كما سبحانه :" يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" [٢] .

ومن أمثلة الجدال الممدوح قوله تعالى : " قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" [٣] ، وقوله : " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ " [٤] .

وربما بالغ بعض الناس ليدافع عن نفسه فيقع في الانتصار للنفس ، كقوله سبحانه : " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" [٥] ، ولذلك سمى الله حديثها الأول جدالا ، فلما حاورها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين لها صارت تحاوره .

أما الجدل المذموم فمثل جدلِ الكفّارِ: وهو ما كان على غيرِ هدًى ، أو كان لدحْضِ الحقّ ، أو كان لتثبيتِ باطلٍ والدّعوةِ إليه ونصرةِ أهلِه والدفاع عنهم .

---

١ سورة الكهف : ٥٤.

٢ سورة النحل : ١١١ .

٣ سورة هود : ٣٢ .

٤ سورة هود : ٧٤ .

٥ سورة المجادلة : ١ .

والجدل المذموم في القرآن أربعة أنواع :

النوع الأول : الجدال في آيات الله ، قال تعالى : " ما يُجادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ و الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" .

عن أبي مالك أنها نزلت في الحارث بن قيس السلمي ، ولم نجد في المصادر العلمية ترجمة أو ذكرا للحارث ، ومهما يكن فإن الملأ كانوا يجادلون في آيات ليبطلوها ، ويحقوا الباطل الذي معهم .

وقد اختار الطبري أن المقصود بالجدال في هذا الموضع هو الجدال في وحدانية الله وأدلته ، ويفصل الرازي نوع الجدال في آيات الله ، فيقول : " الجدال في آيات الله هو أن يقال مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلمه بشر، وأشباه هذا مما

---

١ قال ابن تيمية :" وقد ذم الله تعالى في القرآن ثلاثة أنواع من المجادلة : ذم أصحاب المجادلة بالباطل ليدحض به الحق ، وذم المجادلة في الحق بعد ما تبين ، وذم المحاجة فيما لا يعلم المحاج " درء تعارض العقل والنقل (١٧٠/٧) ، وانظر الفتاوى الكبرى(١٣٩/١) .

٢ سورة غافر: ٤،٥ .

٣ تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٦٤/١٠) ، وفي الدر المنثور أنه الحرث بن قيس السلمي ، ولم أجد أحدا بهذين الاسمين في كتب التفسير الأخرى وكتب السيرة ، والتاريخ ، وقد وجدت الألوسي يذكر في تفسير الآية(٢٩٢/١٢) أن الحارث هذا أحد المستهزئين ، فالله أعلم ، والمصادر تذكر الجد بن قيس السلمي الذي نزلت فيه "ائذن لي ولا تفتني" فلعله تصحيف.

٤ تفسير الطبري(٣٥٢/٢١) .

كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق " [١] ، وأما الواحدي فيختصر القول في ذلك في دفع الآيات وإبطالها [٢] ، ويخص السمعاني والبغوي وابن الجوزي الجدال بالتكذيب [٣] ، ويزيد الزمخشري فيدخل في الجدال الطعن في الأدلة [٤] .

وقد توسع الطاهر بن عاشور في توضيح الجدال في آيات الله ، فجعله يشمل الآيات المسموعة والآيات التي طلبها الكفار ، وجعل الجدال فيها بمعنى الجدال في تصديق الأولى وتكذيب وقوع الثانية ، ويستدل على ذلك بقرينة السياق [٥] .

ويبدو أن قول المفسرين أظهر من قول ابن عاشور ، لأن المقصود من الجدال في الآيات أي المسموعة ، وأما الآيات التي اقترحوها كتفجير الينابيع والأنهار ، وسقوط السماء ، فلا تسمي جدالا لأنهم طلبوها ولم يجادلوا عنها ، ويؤيد ذلك أن عادة القرآن في ذكر الآيات أنها إما أن تكون مسموعة أو مشهودة أو مقترحة ، وليس في القرآن جمع بين هذه المعاني في موضع واحد ، وظاهر كلام ابن عاشور أن الآيات في الآية تجمع بين المسموعة والمقترحة .

---

١ مفاتيح الغيب للرازي (٤٨٦/٢٧) ، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٣٥/٩) وتفسير المراغي (٤٤/٢٤) .

٢ الوجيز للواحدي(٩٤٠/١).

٣ تفسير السمعاني (٦/٥) وتفسير البغوي (١٣٨/٧) وزاد المسير لابن الجوزي(٣١/٤) .

٤ الكشاف للزمخشري (١٥٠/٤) وتفسير القرطبي (٢٩٢/١٥) .

٥ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٨٢/٢٤)

النوع الثاني : الجدال بالباطل : ويراد به الجدال بالطرق الباطلة ، كالكذب ، والكهانة ، والتشكيك ، وهذا إذا جعلنا باء الجر باء الاستعانة أما إذا جعلناها الالصاق فيكون المعنى الجدال المتلبس صاحبه بالباطل، وهذا يشمل كل صور الجدال المذموم .[٢]

وحملها على الاستعانة أولى من حملها على الالصاق ، لأن حمل الآية على التأسيس أولها من حملها على التأكيد ، وذلك أن حمل الباء على الالصاق سيكون المعنى يشبه معنى يجادلون في آيات الله ، وأما إذا حملناها على تأسيس معنى جديد وهو باء الاستعانة فسيكون المعنى وسائل الجدال الباطل .

والفرق بين نوع الجدال الأول والثاني أن الأول يبين المجادل فيه وهو آيات الله ، والثاني يبين وسيلة الجدال ، وهي الباطل سواء كان بالأساليب

---

١ انظر في معاني حرف الباء أوضح المسالك لابن هشام(٣٢/٣) ، وتوضيح المقاصد والمسالك للمرادي (٧٥٥/٢) .

٢ تعدد الأوجه في الباء معهود ، وقد اختلف الزمخشري وأبو حيان في تفسير الباء في قوله (ولا تلبسوا الحق بالباطل) فجعلها الزمخشري للاستعانة ، وجعلها أبو حيان للإلصاق .البحر المحيط لأبي حيان (٢٩٠/١) ، والكشاف للزمخشري(١٣٢/١)

٣ ذكر ابن عاشور القولين وسمى الباء الأولى باء الآلة والثانية باء الملابسة ، ولم يرجح بينهما ، التحرير والتنوير لابن عاشور(٨٦/٤) .

٤ ذكر هذه القاعدة أبو حيان في البحر المحيط (٨٣/٤) ، والألوسي في روح المعاني(٢٢٦/٦).

٥ ظاهر كلام الرازي أنه جعل الجدال في آيات الله هو الجدال بالباطل ، انظر مفاتيح الغيب للرازي (٥٢٦/٢٧) .

أو الكلمات ، وقد قال الألوسي : "وجادلوا بالباطل بما لا حقيقة له قيل هو قولهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا " . [١]

النوع الثالث : الجدال بغير علم : قال تعالى: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ" . [٢] [٣] [٤]

الجدال بغير علم يحتمل أن يكون المقصود الجدال بغير علم صحيح ، ويحتمل أن يكون بغير علم أصلا ، لأن النفي يأتي لنفي الوجود ، ونفي الحقيقة ، ونفي الكمال . [٥]

ومن الجدال بغير علم ما جاء في سبب نزول قوله تعالى : " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) " . [٦]

فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير، يعبدون من دون الله. فنزلت إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون عيسى وعزير والملائكة " . [٧]

---

١ تفسير الألوسي (٢٩٢/١٢)

٢ سورة إبراهيم : ١٠ .

٣ سورة الحجّ : ٨ ، وسورة لقمان: ٢٠ .

٤ ظاهر كلام البيضاوي أنه جعل الجدال بغير علم كالجدال بالباطل . انظر تفسير البيضاوي (٦٦/٤) ، وأضواء البيان للشنقيطي (٢٦١/٤).

٥ التحبير شرح التحرير للمرداوي (٢٧٧٨/٦) والبرهان في أصول الفقه للجويني (١٠٦/١) .

٦ سورة الأنبياء : ٩٨ .

٧ تفسير ابن أبي حاتم (٢٤٦٨/٨) .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون .[1]

وهناك قول آخر في الآية فعن ابن عباس في قوله : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) قال : يعني قريشا لما قيل لهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: ذاك عبد الله ورسوله، فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا، فقال الله عزّ وجلّ: (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) .[2]

النوع الرابع : الجدال في الحق بعدما تبين :

هذا النوع من الجدال يقع من المؤمن والكافر ، والمراد به المجادلة لتغيير الأمر الثابت ، كما حدث عند بعض الصحابة لما علموا بقدوم جيش أبي جهل ، وهروب قافلة أبي سفيان ، وفي ذلك يقول تعالى : " كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ" .[3][4]

---

١ تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٨٤/١٠) .

٢ تفسير الطبري (٦٢٥/٢١) .

٣ الكشاف للزمخشري (١٩٩/٢) والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٠٢/٢).

٤ سورة الأنفال : ٥،٦

وجدال الملأ في ذلك يهدف لتغيير الشيء الثابت ، وغالبا يكون الجدال بعد ظهور الحق وأهله ، وزهوق الباطل وأهله ، فهم يجادلون خوفا على مكانتهم .

المطلب الثاني : سؤال المعجزات والآيات :

تعريف المعجزة : الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الأنبياء [١]

تعريف الآيات : جمع آية وهي العلامة الظاهرة .

وتأتي كلمة آية و الآيات في القرآن على أربعة معاني :

١- آيات كونية مشهودة : كقوله تعالى : " وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ، وقوله عز وجل : " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) " .

٢- آيات مسموعة : كقوله تعالى : " مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ، وقوله

---

١ المواهب اللدنية لأبي العباس القسطلاني(٢/٢٣٥) ، قال ابن تيمية في كتابه النبوات(٢/٧٨٥) : "فصل الله تعالى سماها آيات وبراهين ولم يسمها معجزات" ، وقد سماها ابن تيمية معجزات في كتابه(١/٥١٩) ، ولكنه يفضل الاقتصار على منصوص القرآن .

٢ تاج العروس للزبيدي (٣٧/١٢٧) ، ومجمل اللغة لابن فارس (١/١٠٦).

٣ سورة يوسف : ١٠٥

٤ سورة الإسراء : ١٢ .

٥ سورة البقرة :١٠٦

تعالى : " و إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) "

٣- آيات وعلامات حسية تدل على صدق الرسل :

ويطلبها الكفار من أنبيائهم ، كقوله سبحانه : " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) .

وقال صالح عن ناقة الله : " وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) " .

وقال عن انشقاق القمر : " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) .

٤- العلامة الظاهرة : كقوله تعالى : " أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)" .

وقوله : " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) " .

وما بعث الله نبيا إلا بعث معه آية بينة على صدقه ، فكان بعض قومه يكتفي بالآية الظاهرة ، وكان أكثرهم ولاسيما الملأ يطلب الآيات تعجيزا للنبي وتشكيكا فيه .

---

١ سورة النحل : ١٠٢ .
٢ سورة الأنعام : ٣٧
٣ سورة هود : ٦٤ .
٤ سورة القمر : ١،٢ .
٥ سورة الشعراء : ١٢٨
٦ سورة سبأ :١٥ .

فسألت ثمود الناقة ، وسألت بنو إسرائيل موسى أن يكلمهم الله أو يريهم آية .

الموضع الأول : سؤال المشركين كلام الله لهم ، قال تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) .

اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء الذين لا يعلمون ، واختار ابن جرير[١] أنهم النصارى لدلالة السياق على ذلك ، فقد تقدم في سياق الآيات ذكر النصارى ، واختار ابن كثير[٣] أن المراد بهم مشركو العرب ، لقوله تعالى : " وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون"[٤] .

الموضع الثاني : سؤال الملأ من أهل مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى :" وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ(١٠٩)" ، قال ابن جرير : " عن محمد بن كعب القرظي قال: كلّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قريشًا، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصًا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثُمود كانت لهم ناقة، فأتنا بشيء من الآيات

---

١ انظر الاختلاف : في تفسير ابن أبي حاتم (٢١٦/١) ، وتفسير الطبري (٥٥٠/٢) والنكت والعيون للماوردي (١٨٠/١)

٢ تفسير الطبري(٥٥٠/٢)

٣ تفسير ابن كثير (٣٩٩/١) .

٤ سورة الأنعام : ١٢٣ .

حتى نصدقك! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيَّ شيء تحبُّون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعَل لنا الصَّفا ذهبًا. فقال لهم: فإن فعلت تصدقوني؟ قالوا: نعم والله، لئن فعلت لنتبعنّك أجمعين! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: لك ما شئت، إن شئتَ أصبح ذهبًا، ولئن أرسل آيةً فلم يصدقوا عند ذلك لنعذبنَّهم ، وإن شئت فأنْحُهم حتى يتوب تائبهم ، فقال: بل يتوب تائبهم، فأنزل الله تعالى: (وأقسموا بالله) إلى قوله : (يجهلون) " .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : " وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) " .

ويذكر ابن جرير أثرا طويلا في هذه الآية ، وهو شاهد على أسئلة الملأ الآيات والمعجزات ، " عن ابن عباس ، أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبيها ومُنبها ابني الحجاج السَّهميين اجتمعوا، أو من اجتمع منهم، بعد غروب

---

١ هكذا في المطبوع ، وبين المحقق أن معناها افسح ، انظر تفسير الطبري(٣٩/١٢) الحاشية رقم (٣) .

٢ تفسير الطبري(٣٩/١٢) .

الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظنّ أنه بدا لهم في أمره بَداء، وكان عليهم حريصا، يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عَنَتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنُعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجنّ: الرئي ، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطّب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بي ما تَقُولُونَ، ما جِئتُكُم بِما جِئْتُكُم به أَطلُبُ أَموالَكُم، ولا الشَّرَفَ فِيكُم وَلا المُلْكَ عَلَيْكُم وَلَكِنَّ الله بَعَثَني إِلَيْكُم رَسُولا وَأَنزَلَ عَلَ يَّ كِتَابا، وَأَمَرَني أَنْ أَكُونَ لَكُم بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُم، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنّ ي مَا جِئْتُكُم بِه فَهُوَ حَظُّكُم فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمرِ الله حتى يَحْكُم الله بَيْنِي وَبَيْنَكُم"، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا، ولا أقل مالا ولا أشدّ عيشا منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليفجّر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن

يبعث لنا منهم قُصَّي بن كلاب، فإنه كان شيخا صدوقا، فنسألهم عما تقول، حقّ هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك، وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك بالحقّ رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بِهذَا بُعِثْتُ، إنَّما جِئْتُكُم مِنَ الله بِما بَعَثَني بِه، فقد بَلَّغْتُكُم ما أُرسِلْتُ بِه إليكم، فإنْ تَقْبَلُوه فَهُوَ حَظُّكُم في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وإنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمرِ الله حتى يَحْكُم الله بَيْني وَبَيْنَكُم" قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا، فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بِفاعِلٍ، ما أنا بِالَّذي يَسْأَلُ رَبَّه هذَا، وَما بُعِثْتُ إلَيْكُم بِهذَا، وَلَكِنَّ الله بَعَثَني بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فإنْ تَقْبَلُوا ما جِئْتُكُم بِه فَهُوَ حظُّكُم في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وإنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لأَمرِ الله حتى يَحْكُم الله بَيْني وَبَيْنَكُم قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلكَ إلى اللهِ إنْ شاءَ فَعَلَ بِكُم ذلكَ، فقالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك، ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله ما نؤمن بالرحمن أبدا، أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهنّ بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك، قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أميَّة بن المُغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهو ابن عمته هو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا، ليعرفوا منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوّفهم به من العذاب، فوالله لا أومن لك أبدا، حتى تتخذ إلى السماء سلما ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننتُ ألا أصدّقك، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا أسيفا لما فاته مما كان يطمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه، فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنّ له غدا بحجر قدر ما أطيق حَمْله، فإذا سجد في صلاته فضخت رأسه به.

ونجد أن منهج القرآن في الرد على أسئلة الكفار للآيات كان على وجوه:

الوجه الأول : يبين القرآن أن هذه الأسئلة ليست جديدة بل هي مشابهة لأسئلة الكفار ، وأن الله قد بين الدلائل على صدق الرسل لمن كان موقنا مطمئنا للحق أما من كان شاكا فلا تنفعه الآيات ، كقوله تعالى : " وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) .

---

١ تفسير الطبري (٥٥٦/١٧) ، وانظر : (٢٤٠/١٩) .

٢ سورة البقرة : ١١٨ .

الوجه الثاني : بيان عدم انتفاع الكفار بهذه الآيات ، وأنهم حين يرون الآيات يستهزئون بها ويكذبونها ، كقوله تعالى : " وَما تَأْتِيهِم مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) " [١] ، وقوله : " وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) " [٢] ، وتبين الآيات أن الكفار نطقوا بذلك فصرحوا بأنهم لن يؤمنوا بأي آية يأتي بها النبي، كقوله : " وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) " [٣] .

الوجه الثالث : التهديد لزجرهم عن أسئلة التعنت ، كقوله : " وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) " [٤] ، وأحيانا يقرن بين عدم إيمانهم بالآيات وتهديدهم : " إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) " [٥] .

الوجه الرابع : أن الرسل مكلفون بالبيان والإنذار وأن الآيات تأتي من الله سبحانه وهو الهادي ، كقوله : " وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ، وقوله : " وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

١ سورة الأنعام : ٤،٥ .

٢ سورة الأنعام :١٠٩،١١٠ .

٣ سورة الأعراف :

٤ سورة يونس : ٢٠

٥ سورة يونس : ٩٦،٩٧ .

لَ وْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) " [١] .

ويهدف الملأ من سؤال المعجزات والآيات التعجيز وإظهار الضعف ، وأحيانا يريدون بذلك التحدي للأنبياء ، وهو المطلب الثالث .

المطلب الثالث : التحدي :

يظن الملأ أن قوتهم الدنيوية وسمعتهم وقربهم من الرؤساء يمكنهم من مواجهة الرسل وتحديهم ، ومرادهم من ذلك إظهار ضعف الرسل وعجزهم ، وحماية مكانتهم الاجتماعية من التراخي ، لأنهم يعلمون أن دعوة الرسل تهدد مكانتهم ، ولذلك حاربوها وطعنوا فيها ، واستهزئوا بأتباعها ، ولذلك نجد التحدي أمام أتباع الرسل لإظهار ضعفهم ، ويكون أيضا أمام الرؤساء لإظهار الدفاع عنهم .

وقد ورد تحدي الملأ للأنبياء في مواضع :

الموضع الأول : " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) " [٢] .

ضمير الواو في (قالوا) يعود إلى الملأ الذين قالوا لهود : قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين (٦٦) " [٣] .

وصيغة الملأ تدل على تحديهم لهود من وجهين :

الوجه الأول : أنهم قالوا فأتنا ، والأمر للتعجيز ، والغرض إظهار عجزه عن اثبات نبوته وصدقه .

---

١ سورة الرعد :٢٧

٢ سورة الأعراف : ٧٠ .

٣ سورة الأعراف : ٦٦ .

٤ التحرير والتنوير لابن عاشور (٨ / ٢٠٩) .

الوجه الثاني : أنهم عقبوا كلامهم بالشرط ، فقالوا إن كنت من الصادقين، وجواب الشرط محذوف ، تقديره فأت به .

والنتيجة التي يبتغونها إظهار عجز هود عن الإتيان بالعذاب ، وهذا سيصد الناس عنه ، ويحمي عبادتهم .

قال أبو زهرة في تفسير هذه الآية : " تحدوا هودا أن ينزل الله العذاب الذي هددهم به، وطلبوا من نبيهم أن ينزله كأن الأمر بينهم وبينه، وذلك للاستمرار على كفرهم وجحودهم " ، والغريب أن تحديهم عاد عليهم بالخسران ، فقد استفتحوا على أنفسهم ، وهم لا يشعرون كما ذكر ذلك السعدي في تفسيره . ٣

ومن المحاسن في مواجهة الأنبياء للملأ : أن قوم هود حين تحدوه ، قابل تحديهم بتحد من جنس آخر ، فقال لهم حين قالوا له : " إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) " . ٤

ومثل هذا التحدي ما قصه الله عن قوم نوح : " قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) " .

---

١ التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٩/٨) .
٢ زهرة التفاسير لأبي زهرة (٢٨٨٦/٦) .
٣ تفسير السعدي (٢٩٤/١) .
٤ سورة هود : ٥٤،٥٥،٥٦ .
٥ زهرة التفاسير لأبي زهرة (٣٧٠٣/٧) .
٦ سورة هود : ٣٢ .

ومثله ما قصه عن قوم صالح : " فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) " [١] .

ومقصودهم بالوعد أي العذاب الدنيوي ، ولذلك نجد الآيات تبين حلوله عليهم .

ومثل ذلك طلب الملأ من أهل مكة للعذاب استبعادا لوقوعه وتكذيبا بحلوله، كقوله تعالى : " وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) " [٢] ، وقوله تعالى : " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)" [٣] ، وقوله سبحانه : " وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) " [٤] ، وقوله عز شأنه : " أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) " [٥] .

الموضع الثاني : " قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ

---

١ سورة الأعراف : ٧٧ .

٢ سورة هود : ٨ .

٣ سورة الأنفال : ٣٢ .

٤ قال أبو زهرة : فهم يطلبون السيئ تحديا وتهكما، واستهتارا، وكأنهم لا يعبئون ، زهرة التفاسير (٣٩٠٠/٧) .

٥ سورة الرعد : ٦ .

٦ سورة الإسراء : ٥١ .

وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)".

قال الشنقيطي عن السحرة : " وقد جاءوا متحدين غاية التحدي لموسى – عليه السلام " [١] .

الموضع الثالث : تحديهم بطلب البعث ، قال تعالى : " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) " [٢] .

قال ابن عاشور : كانوا يطلبون تعجيل البعث تحديا وتهكما ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلا على أنه لا يكون " [٣] .

الموضع الرابع : اتهام القرآن بأنه أساطير الأولين ، قال تعالى : " حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قال أبو زهرة :"ولم يكن مجيئهم إذعانا لحق، ولا طلبا لحقيقة، ولكن كان تحديا للرسول ومبالغة في الإنكار" [٤] .

وقد قابل الأنبياء تحدي الملأ بتحد أعظم منه وأكبر ، وإن كان الأنبياء لم يصرحوا بالتحدي في بعض ما جاؤوا به ولكنه في معنى التحدي [٥] ، وكان تحدي الأنبياء على النحو الآتي :

---

١ أضواء البيان للشنقيطي (٢٦٥/٨) .

٢ سورة يس : ٤٨، ٤٩، ٥٠

٣ التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٦/٣٠) .

٤ زهرة التفاسير لأبي زهرة (٢٤٧٣/٥) .

٥ قال ابن عطية : " وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على التحدي بها" المحرر الوجيز (٤٤٠/١) .

التحدي الأول : المطالبة بالإتيان بمثل ما جاء به الأنبياء .

قال ابن عطية : " و «الآيات» التي جاء بها مُوسى وهارُونَ هي اليد والعصا اللتان اقترن بهما التحدي " .

وكان التحدي بالقرآن قد حاز أعلى مقامات التحدي ،فقد كان التحدي به على أوجه : [٢]

الأول : التحدي بالحروف المقطعة في أول السور .

الوجه الثاني : التحدي بالإتيان بسورة أو عشر سور أو بمثل القرآن .

الوجه الثالث : التحدي بأخباره عن الماضي والمستقبل .

الوجه الرابع : التحدي بأحكامه العملية ويسرها وتفصيلها ورحمتها وشمولها للناس وحكمتها .

الوجه الخامس : التحدي بألفاظه ونظمه وبيانه .

الوجه السادس : التحدي بأنه قد نزل على رجل أُمّي .

---

١ المحرر الوجيز لابن عطية (١٤٤/٤) .

٢ ذكر القرطبي في تفسيره عشرة أوجه (٧٣/١) وقال ابن تيمية " وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة " ، انظر الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٢٨/٥).

التحدي الثاني : المطالبة بالعثور على عيب بالأنبياء .

قال تعالى : " قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) " [1]

قال ابن عاشور : وهذا جار مجرى التحدي لأنه لو كان لجماعتهم أو آحادهم علم بأنه طلب أجرا منهم لجاروا عند هذا التحدي بمكافحته وطالبوه برده عليهم. [2]

التحدي الثالث : المطالبة بمنع الحق وطمسه واثبات عجزهم .

قال سبحانه : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) " . [3]

حفظ الله ألفاظ القرآن من الزيادة والنقص والتحريف ، ولم يستطع أحد أن يلبس على كل الناس في القرآن ، كما حصل في التوراة والإنجيل فقد التبس على جميع الناس الحق بالباطل فيهما ، أما القرآن فقد وقع التحدي بحفظه ، فلم يستطع أحد أن يخلط نوره بظلمة ، ولا ألفاظه بألفاظ غيره ، حتى يلتبس أمره على الناس . [4]

التحدي الرابع : المطالبة بكيد الأنبياء والتخلص من أتباعهم .

وقد ورد في القرآن في ثلاثة مواضع :

---

١ سورة سبأ : ٤٧ .

٢ التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٦/٢٢)

٣ سورة الحجر : ٩ .

٤ مفاتيح الغيب للرازي(١٢٣/١٩) وتفسير الطبري(٦٨/١٧) وتفسير المراغي(٩/١٤) .

الموضع الأول : قال تعالى : " أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) "[1]

الموضع الثاني : " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١)" .[2]

الموضع الثالث : " إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) " .[3]

التحدي الخامس : المطالبة بإظهار نفع الباطل وثبات أهله وصدقهم .

قال تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) .[4]

قال السعدي " : وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان " .[5]

ومن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) .[6]

---

١ سورة الأعراف : ١٩٥ .

٢ سورة يونس : ٧١ .

٣ هود :٥٤،٥٥،٥٦ .

٤ سورة الأعراف : ١٩٤ .

٥ تفسير السعدي (٣١٢/١) .

٦ سورة الجمعة : ٦ .

قال السعدي :" وهذا أمر خفيف ، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلا على صدقهم إن تمنوه ، وكذبهم إن لم يتمنوه ، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك ، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده" .

المطلب الرابع : السخرية والاستهزاء :

تجتمع السخرية والاستهزاء في احتقار الناس ، وعيبهم ، والطعن فيهم بالقول والفعل ، والفرق بينهما أن السّخرية تكون بالفعل وبالقول، والهزء لا يكون إلّا بالقول ، والثّاني : أنّ السّخرية يسبقها عمل من أجله يسخر بصاحبه، أما الاستهزاء فلا يسبقه ذلك ، ولسخرية الملأ مواضع في كتاب الله كثيرة ، منها :

الموضع الأول : قال تعالى :" قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٦٠)"

قال السعدي : " فلم يكفهم – قبحهم الله – أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالا مبينا واضحا لكل أحد " ، بل قد أكدوا هذا الضلال بأنواع من المؤكدات يبينها الشيخ رشيد رضا فيقول : " حكموا بضلاله وأكدوه بالتعبير بالرؤية العلمية وبأن واللام وبالظرفية المفيدة للإحاطة، كأنهم قالوا إنا لنراك في غمرة من الضلال

---

١ تفسير السعدي (٨٦١/١) والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٣/٩) .
٢ لسان العرب لابن منظور (٤٥٣/٤) .
٣ الفروق لأبي هلال العسكري٢٤٩ .
٤ سورة الأعراف : ٦٠ .
٥ تفسير السعدي (٢٩٢/١) .

محيطة بك لا تهتدي معها إلى الصواب سبيلا. وذلك لما رأوه عليه من الثقة بما يدعو إليه " .[١]

وهذا القول من قوم نوح خرج مخرج الاستهزاء والسخرية ، لوصفهم نبيهم بالضلال الظاهر ، وتأكيد ذلك بأنواع المؤكدات ، ومشابهة ذلك لأجوبة الملأ مع أنبيائهم .

ومع كل ذلك فقد أجابهم نوح بالطف لفظ فقال : " قَالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) " .

ومثل ذلك قول الملأ من عاد ، قال سبحانه : " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) " .

اتهموا نبيهم بأنه أحمق وجاهل وكاذب وليس بعد هذه السخرية شيء .

الموضع الثاني : قال تعالى : " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) " .

---

١ تفسير المنار لرشيد رضا (٤٣٧/٨) ، وتفسير المراغي (١٨٩/٨) .

٢ سورة الأعراف : ٦١،٦٢،٦٣.

٣ يبين الرازي وجه زيادة قوله الذين كفروا ولم يقل في قصة نوح ذلك : " والفرق أنه كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد أسلم وكان يكتم إيمانه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن " مفاتيح الغيب (٣٠٠/١٤) .

٤ سورة الأعراف : ٦٦ .

٥ الوجيز للواحدي (٣٩٩/١) .

وقد سخروا من نوح من خمسة أوجه :

الوجه الأول : أنه بشر مثلهم ولا يصلح للنبوة .

الوجه الثاني : أن أتباعه من الأراذل .

الوجه الثالث : أن هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك .

الوجه الرابع : أن لا فضل لنوح ولا لأتباعه عليهم ولا زيادة في العقل والفهم .

الوجه الخامس : أنهم اتهموا نوحا وأتباعه بالكذب وهذا أشد أنواع السخرية والاحتقار.

الموضع الثالث : قال عز وجل : " وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) " . [٢]

قال الزمخشري : " نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة " .

وقال الرازي مبينا أسباب السخرية من نوح في بناء السفينة : " واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون وفيه وجوه أحدهما: أنهم كانوا يقولون: يا نوح

---

١ وهذا اختيار السمعاني في تفسيره (٤٢٤/٢)والزمخشري في الكشاف (٣٨٨/٢) وابن كثير في تفسيره (٣١٦/٤) وقال عطاء:" وأما بادي الرأي فما ظهر لنا". أي أنهم أراذل عند كل من يشاهدهم واختاره الطبري (٢٩٥/١٥) ، واختار الواحدي في الوجيز (٥١٨/١) أن أتباعك اتبعوك في الظاهر وهم يخالفونك في الباطن.

٢ سورة هود :٣٨ .

٣ الكشاف للزمخشري (٣٩٣/٢) .

كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجارا. وثانيها: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقا في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق. وثالثها: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون. ورابعها: أن تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون: ليس هاهنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون. وخامسها: أنه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا في ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة " .

الموضع الرابع : قال تعالى : " فَما كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) " .

قال الزمخشري : " وقولهم إنهم أناس يتطهرون سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة " .

الموضع الخامس : قال تعالى : " قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) " .

قال ابن جريج وابن زيد : يستهزئون .

---

١ مفاتيح الغيب للرازي (٣٤٥/١٧) .

٢ سورة النمل : ٥٦ .

٣ الكشاف للزمخشري (١٢٦/٢) .

٤ سورة هود : ٨٧ .

٥ تفسير الطبري(٤٥٣/١٥)

المطلب الخامس : الطعن والتشكيك :

يحرص الملأ في مواجهتهم لأنبياء الله على الطعن بهم ، والتشكيك بهم ، ونزع الثقة عنهم ، ليحققوا أربعة أهداف :

الهدف الأول : إسقاط منزلة الأنبياء لئلا يقتدى بهم .

الهدف الثاني : تشكيك أتباع الأنبياء في دينهم ، وصدهم عن سبيل الله عز وجل .

الهدف الثالث : إثبات سلامة الملأ في دينهم .

الهدف الرابع : المحافظة على مكانة الملأ الاجتماعية بين الناس .

وأنواع الطعون والتشكيكات على النحو الآتي :

النوع الأول : الطعن والتشكيك بصدق الأنبياء باتهامهم بالجنون والسحر والشعر .

النوع الثاني : الطعن في أتباع الأنبياء واحتقارهم .

النوع الثالث : تشكيك أتباع الأنبياء بصحة الحق .

وهذا النوع الثالث يكون في التشكيك في أصول الدين وفروعه :

الأصل الأول : التشكيك في الألوهية ، كقوله سبحانه : " أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) " .

الأصل الثاني : التشكيك بالبعث ، كقوله سبحانه : " وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) " .

---

١ سورة ص : ٥ .

٢ سورة الواقعة : ٤٧ .

الأصل الثالث : التشكيك في الوحي ، كقوله تعالى " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) " .

الأصل الرابع : التشكيك في النبوة ، كقوله سبحانه :" وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا(٧)أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)" [٢] .

ومواضع الطعن بالأنبياء والتشكيك بنبوتهم كثيرة ، منها :

الموضع الأول : قال تعالى : " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) " [٣] .

ليس للملأ شغل إلا مواجهة الأنبياء ، وأتباعهم ، لأنهم يعتقدون أن بقاء الأنبياء ذهاب لهم ، ولمكانتهم ، ومن طرق الملأ في ذلك رمي التهم ، والشكوك ، بأنواع الحيل ، فتارة يختلقون قصة تنقص من قدر النبي ، وتارة يسخرون منه أمام أتباعه ، وتارة يثيرون الأسئلة على أتباع الأنبياء ، ومن ذلك ما قاله قوم صالح لأتباعه .

قال ابن عاشور : " عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم " [١] .

---

١ سورة الفرقان : ٤،٥ .

٢ سورة الفرقان : ٧،٨ .

٣ سورة الأعراف : ٧٥ .

والغرض من السؤال ، معرفة أدلة الأتباع على صحة نبوة صالح ، ولعلهم سألوهم هذا السؤال قبل خروج الناقة ، وحرص الملأ على سؤال الأتباع لأنهم متفاوتون في معرفة دلائل النبوة ، وفيهم العالم والمقلد ، ورمي الأسئلة عن الأدلة على المقلدين يربكهم ، ويحرك السؤال في قلوبهم .

الموضع الثاني : قال سبحانه : " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) " [٢] .

ونلاحظ أن الملأ طعنوا بنوح من أربعة أوجه :

الوجه الأول : اتهموا نيته وقصده ، وقالوا إنه يريد الفضل والرئاسة على الناس .

الوجه الثاني : أن نوحا لو كان صادقا لأرسل الله معه الملائكة .

الوجه الثالث : أنهم لم يسمعوا بهذا القول في آبائهم الأولين فدل على بطلانه اتهموه بالجنون وذهاب العقل .

الوجه الرابع : قالوا ننتظره لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى، ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

الموضع الثالث : قال عز وجل : " وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ

---

١ التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٢/٨) ، وقد جعل الزمخشري هذا الموضع من مواضع السخرية والطنز ، انظر الكشاف (١٢٣/٢) .

٢ سورة المؤمنون : ٢٤، ٢٥ .

٣ تفسير المراغي (١٨/١٨) .

إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) " [١] .

اختلف المفسرون في تعيين رسول هؤلاء الملأ هل هو هود أو صالح ، ونلاحظ أن الملأ طعنوا في هذا الرسول من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أنه بشر مثلهم يأكل ويشرب وهذا يقتضي بطلان نبوته ، لأن النبي ينبغي أن يكون من غير البشر .

الوجه الثاني : أنه حديثه عن البعث مستبعد .

الوجه الثالث : أنه يفتري على الله الكذب .

والنتيجة من كل ذلك أن معشر الملأ لن يؤمنوا به ، ولن يتبعوه .

الموضع الرابع : قال تعالى : " وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)

---

١ سورة المؤمنون : ٣٣-٣٨ .

٢ وهذا رأي الزمخشري في الكشاف(١٨٥/٣) والمراغي في تفسيره (٢٢/١٨) .

٣ وهذا اختيار الطبري في تفسيره (٢٨/١٩) والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (٥٠/١٨) ، وذكر القولين ابن كثير في تفسيره (٤٧٤/٥) ولم يرجح بينهما ، وانفرد القرطبي بقوله لا يبعد أن يكونوا قوم شعيب ، الجامع لأحكام القرآن (١٢١/١٢)، وانفرد القاسمي في محاسن التأويل(٢٨٩/٧) بقوله أن أكثر المفسرين على أن النبي هنا هو هود .

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ(٨) " .

وفي هذا السياق يبين الله أن الملأ من أهل مكة أنهم طعنوا في نبيهم وفي دعوته وتواصوا بالصبر ، ووجوه طعنهم على النحو الآتي :

الوجه الأول : أنهم وصفوه بالساحر الكذاب ، وهذا أبلغ ما يجري من الذم.

الوجه الثاني : نهم استنكروا جعل الآلهة إلها واحدا ، والذي تقتضيه عقولهم أن تكون الآلهة متعددة .

الوجه الثالث : اتهموا نبيهم فقالوا : يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد .

الوجه الرابع : أنهم لم يسمعوا بهذه الدعوة من قبل ، وهذا دليل بطلانها لأنها جديدة.

الوجه الخامس : أن الوحي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزل على شريف من الشرفاء .

المطلب السادس : الدعاء :

وهذا الأسلوب ينهجه الملأ لترهيب الخصم ، وردعه عن مواصلة المواجهة، وما علموا بأنهم يدعون على أنفسهم ، ويستفتحون على هلاكهم لو يشعرون .

وقد ورد في القرآن ثلاثة أدعية قد دعا بها الملأ لتعجيل عذابهم :

الموضع الأول : قال تعالى : " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) " .

---

١ سورة الأنفال : ٣٢ .

قال ابن كثير : " هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: "اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه" ، ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة " [١] .

الموضع الثاني : قال سبحانه : " وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥)" [٢] .

اختلف المفسرون في فاعل الاستفتاح وهو طلب النصر ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم الرسل ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أنهم الأمم وهو الذي يظهر لثلاثة أوجه [٣] :

الوجه الأول : أن الله قال بعدها وخاب كل جبار ، للدلالة على أن هذا الاستفتاح عاد بالخيبة على قائله .

الوجه الثاني : أن الله قال قبلها : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) " والضمير يعود لأقرب مذكور .

الوجه الثالث : أن الآيات التي وردت في القرآن في الاستفتاح كانت صادرة من الملأ ولم تصدر من الأنبياء إلا من نوح وقد استغفر ربه .

الموضع الثالث : قال عز وجل : " وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)" [٤] .

---

١ تفسير ابن كثير (٤٧/٤) .

٢ سورة إبراهيم : ١٥

٣ تفسير الطبري(٥٤٦/١٦) .

٤ سورة ص : ١٦ .

وهذا الدعاء وإن كان قد خرج مخرج السخرية ، ولكنه دعاء منهم على أنفسهم بأن يعجل الله عذابهم قبل موعده . [1] [2]

قال المراغي : سخرية وتهكما حين سمعوا بالمعاد .

المطلب السابع : التهديد :

لم يدع الملأ وسيلة تصد الأنبياء عن دعوتهم إلا فعلوها ، ولم يألوا جهدا في صد الناس عن اتباع الأنبياء ، حتى إذا يئسوا من كل وسائلهم ، انتقلوا للتهديد والتخويف ، لعله يصد بعض الذين يخافون أن يسطون عليهم ، قال المراغي وهو يتحدث عن مواجهة الكفار للأنبياء : " بعد أن أفحموا لم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب في الخصومة " ، ومواضع التهديد كثيرة منها:

الموضع الأول : قال قوم لوط : " وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) " .

وظاهر الآية أن الملأ هم الذين أمروا الناس بإخراج لوط وأتباعه ، لأنهم أهل الأمر والسيادة ، قال القاسمي : " وما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ أي: المستكبرين في مقابلة نصحه إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ " .

---

١ اختار ابن عباس أن كلامهم هذا قد خرج مخرج الدعاء وأنهم سألوا الله أن يعجل عذابهم في الدنيا ، انظر تفسير الطبري(١٦٥/٢١) .

٢ جعل قتادة هذه الآية تشبه الآية السابقة (فأمطر علينا حجارة) ، انظر تفسير الطبري(١٦٥/٢١) .

٣ تفسير المراغي (١٠٣/٢٣) .

٤ تفسير المراغي (١٣٧/١٣) .

٥ سورة الأعراف : ٨٢ .

٦ محاسن التأويل (١٣٩/٥) .

ومثله قوله تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨)" [١] .

ويبين المراغي وجه تولي الملأ الرد عليه دون غيرهم : " وتولى الرد عليه أشراف قومه كما هو الشأن في بحث كبريات المسائل ومهام الأمور " .

ثم يبين المراغي وجه وصف الملأ بالاستكبار دون غيره : " ووصف الملأ- أولا بالاستكبار- لأنه هو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره بالإخراج من القرية وإشعاره بأنهم أرباب السلطان فيها " .

الموضع الثاني : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) " .

قال السعدي في تفسيره : " وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم " [٦] .

المطلب الثامن : التحريش :

---

١ سورة الأعراف : ٨٨ .

٢ تفسير المراغي (٣/٩) .

٣ تفسير المراغي (٩/٩) .

٤ انفرد الطاهر بن عاشور برأي في تعيين الذين كفروا وأن المقصود بهم كفار مكة واستدل بالسياق ، انظر التحرير والتنوير (٢٠٦/١٣)

٥ سورة إبراهيم : ١٣ .

٦ تفسير السعدي (٤٢٣/١) .

كان الملأ يسعون جهدهم لصد الناس عن اتباع الأنبياء ، بالقول والفعل، وكانوا يتولون المواجهة بأنفسهم في الغالب ، وأحيانا كانوا يحرشون غيرهم ، ليتولوا مهمتهم ، ويغرونه بالعمل ، وتارة يحرشون من فوقهم ، وتارة يحرشون من دونهم ، ولتحريش الملأ مواضع في القرآن منها :

الموضع الأول : قال سبحانه :" قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ(١١٠)"[1]

هذا تحريش من الملأ وتحذير لفرعون وأتباعه من موسى ، وقد خوفوهم من ذهاب أكبر دنياهم ، وهو خروجهم من أرضهم ، ومن خرج من أرضه خسر الدنيا كلها.

الموضع الثاني : قال تعالى : " وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ١٢٨ " .

قال الجزائري في تفسيره : " هذا التحريش والإغراء من رجال فرعون ليبطش بموسى وقومه " [2] .

١ سورة الأعراف : ١١٠.

٢ أيسر التفاسير للجزائري (٢/٢٢٤) .

الخاتمة :

نخلص من بحثنا لأبرز النتائج والتوصيات :

١- كان الملأ هم أعداء الرسل ، وهم الذين يصدون الناس عن سبيل الله ، وكان حديث القرآن عنهم كثيرا تحذيرا من مشابهتهم ، وبيانا لعاقبتهم ، وتعليما لطرق مواجهتهم ، وكانت مواجهتهم للأنبياء لا تخرج عن هذه الثمانية:

٢- الجدال : وفيه الممدوح والمذموم وكان جدال الملأ لصد الناس عن الحق.

٣- سؤال المعجزات : وكان الهدف من ذلك تعجيز الأنبياء وإظهار ضعفهم.

٤- التحدي : وكان الملأ يتحدون الأنبياء بسؤالهم أن يكلمهم الله أو يريهم آية.

٥- السخرية والاستهزاء : وكانوا يسخرون من الأنبياء وأتباعهم .

٦- الطعن والتشكيك : وكانوا يطعنون في دعوة الأنبياء وذواتهم وأتباعهم .

٧- الدعاء : وكانوا يدعون على أنفسهم ويستفتحون بالعذاب .

٨- التهديد : وكانوا يهددون الأنبياء بإخراجهم ويهددون أتباعهم بالعقوبة.

٩- التحريش: وكانوا يحرشون غيرهم لصد الناس عن الأنبياء.

المراجع :

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ هـ

٣- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام ، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

٤- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، ط٥ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

٥- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت ، ١٤٢٠ هـ

٦- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ

٧- التسهيل لعلوم التنزيل ، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي ، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، ط١ ، ١٤١٦ هـ

٨- تفسير الراغب الأصفهاني ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى .

٩- تفسير القرآن ، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء ، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي ، دار ابن حزم – بيروت ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

١٠- تفسير القرآن ، لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي ، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن، الرياض ، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

١١- تفسير القرآن الحكيم ، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين علي خليفة القلموني الحسيني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ م

١٢- تفسير القرآن العظيم ، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم ، المحقق: أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩ هـ

١٣- تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، المحقق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

١٤- تفسير المراغي ، لأحمد بن مصطفى المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط١ ، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

١٥- تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور ، المحقق: محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١، ٢٠٠١م .

١٦- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علّي المرادي المصري المالكي ،شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر ، دار الفكر العربي ، ط١٤٢٨،١هـ – ٢٠٠٨م.

١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م

١٨- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

١٩- درء تعارض العقل والنقل ، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية،ط٢، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م

٢٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، المحقق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت،ط١، ١٤١٥ هـ

٢١- زاد المسير في علم التفسير ، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط١، ١٤٢٢ هـ .

٢٢- زهرة التفاسير ، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة ، دار الفكر العربي .

٢٣- الفروق اللغوية ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر

٢٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، دار الكتاب العربي – بيروت ط٣، ١٤٠٧ هـ .

٢٥- الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق ، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م

٢٦- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي ، دار صادر – بيروت ، ط٣، ١٤١٤ هـ .

٢٧- محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ، المحقق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١، ١٤١٨ هـ .

٢٨- مختار الصحاح لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي ، المحقق: يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا،ط٥،١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٢٩- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي ، دار الكلم الطيب، بيروت ، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٣٠- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء ، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ، ط١ .

٣١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ط١ ، ١٤٢٢ هـ .

٣٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن ، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ، المحقق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي –بيروت ، ط١، ١٤٢٠ هـ

٣٣- معاني القرآن وإعرابه ، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج ، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب – بيروت ، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٣٤- معجم مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبي الحسين ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٥- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط٣ ، ١٤٢٠ هـ

٣٦- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبي العباس، شهاب الدين ، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر .

٣٧- النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي ، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان .

٣٨- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤١٥ هـ .